

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

طلبة الزوايا بين التنشئة الاجتماعية والسلوك الصوفي

من منظور سوسيولوجي

Students of zaouyas between social education and sufi behavior
from a sociological perspective

عطية شطة*

المركز الجامعي نور البشير البيض (الجزائر)

تاريخ النشر: 2022/06/01

تاريخ القبول: 2022/05/01

تاريخ ارسال المقال: 2022/03/06

* المؤلف المرسل

الملخص: لا شك أن مسألة تنشئة الصبيان و تعليمهم تعتبر مناط تفكير دائم للأسرة في المجتمع المسلم، ذلك أن التربية هي تكوين الافراد تكوينا اجتماعيا وخلقيا مما يجعلها عملية مستمرة من الولادة الى الوفاة تتضمن التفاعل و تهدف الى إكساب الفرد سلوكات ومهارات يستقيها من معلمه في المدرسة وشيخه في الزاوية بالمصاحبة. بما أن الطفل يولد عاجزا عن التكيف مع محيطه المادي والاجتماعي وعن التعبير عن حاجاته المتزايدة وقصوره عن إدراك رهاناته المجتمعية والحضارية فإنه ينضم للمجتمع مع مرور الوقت فيحقق رغباته تدريجيا، وهو ما يصطلح على تسميته بالتنشئة الاجتماعية. وعليه، فإن عملية التنشئة الاجتماعية تتناول تربية الطفل بتخصيص مجال ضمن المنظومة التربوية في مجتمعه وفق مسار ضابط لأفكار بقية أفراد المجتمع وانقيادا لضميره الجمعي مما يجعلها مسألة في غاية التعقيد والدقة، في تكامل يدرك من خلاله أن الطفل مشتلة قابلة للإصطباغ بكل وافد لولا أن تدركه عناية المربي فتجعل منه فردا صالحا يترجم طموحات مجتمعه ورسالة أمته الحضارية

الكلمات المفتاحية: تعليم، تنشئة، زوايا، طلبة، قرآن

Abstract : There is no doubt that the issue of raising boys and educating them is a constant thinking of the family in the Muslim community, because education is the formation of individuals socially and morally, which makes it an ongoing process from birth to death involving interaction and aims to give the individual the behaviors and skills he draws from his teacher in the school and his elder in the corner with the companion. Since a child is born unable to adapt to his physical and social environment and to express his growing needs and his failure to realize his societal and civilizational bets, he joins society over time and gradually fulfills his wishes, which is what is called social development. Therefore, the process of socialization deals with the education of the child by allocating an area within the educational system in his community according to the course of an officer for the ideas of the rest of society and in the leadership of his collective conscience, which makes it a very complex and accurate issue, in an integration through which he realizes that the child is a nursery that can be attached to all the children without being aware of the care of the educator and makes him a good person translates the aspirations of his society and the message of his nation civilization

Keywords: Education, learning, Zaouya, Students, Qur'an.

الخيارات النظرية للتنشئة الاجتماعية:

التنشئة الاجتماعية من منظور سيكولوجي:

التنشئة الاجتماعية من زاوية أنتروبولوجية:

التنشئة الاجتماعية من منظور إسلامي:

أساليب التنشئة الاجتماعية في الإسلام:

مداخل تضمنين التربية الروحية في مناهج التعليم النظامي:

مقدمة :

لا شك أن ضمان مستقبل المجتمعات يؤسس له وفق مسارين تنموي وتربوي، إذ يظل هذا الأخير أساس ما يؤرق القائمين على الشأن التربوي بإعداد جيل يضمن صلاح الحال وحسن المآل، ولن يتأتى ذلك إلا بانتهاج سياسة قاعدية مرتكزها روحي ومنظومتها تواكب وجوبا ما هو حاصل في محيط المجتمع المسلم، ولن نجد مؤسسة نجحت إلى حد بعيد في تحقيق تلك الوثبة الروحية التي حققت سمو بروح الناشئة إلا المساجد والكتاتيب والزوايا والرباطات عبر التاريخ الإسلامي.

فهل حققت الزاوية هذه الرسالة وما مدى نجاح منتسبيها في الاضطلاع بهذه المهمة؟

وهو ما سنحاول بعون الله تعالى التطرق إليه في ما يلي باعتبار أن مسألة التعليم تشكل الانشغال الدائم لكافة الأسر في المجتمعات بأسرها، ذلك أن الطفل يولد عاجزا عن التكيف مع محيطه المادي والاجتماعي وعن التعبير عن حاجاته المتزايدة فينضم للمجتمع مع مرور الوقت محققا لرغباته تدريجيا، وهو ما يصطلح على تسميته بالتنشئة الاجتماعية.

فما هي السبل الأكثر نجاعة في تنشئة الاطفال بما يخدم مجتمعاتهم لاحقا وما يحقق طموحهم؟ وهل نجحت الزوايا في هذه المهمة النبيلة التي زاوجت فيها بين التعليم والتربية في أرقى صورها تركية النفس؟

الخيارات النظرية للتنشئة الاجتماعية:

وبما ان التربية هي تكوين الافراد تكوينا اجتماعيا حسب دوركاييم فإنها عملية دينامية تتضمن التفاعل والتغيير تهدف إلى إكساب الفرد سلوكات ومهارات يستقيها من شيخه بالمصاحبة.

يصحب شيخا عارف المسالك... يقيه في طريقه المهالك

وعليه، فإن عملية تربية الطفل وتخصيص حيز له بين ثنايا مجتمعه وفق مسار تنشئتي بتعديل سلوكه مع مراعاة متطلبات المجتمع وأفكار الضمير الجمعي لمجتمعه تعتبر مسألة في غاية التعقيد والدقة، ذلك أن الفوارق الاجتماعية والتنشئية تنسم بالتداخل بالنظر لتشابك الوارد من الكم الهائل من المعلومات لدى الأطفال سواء من قبل أبويه وإخوته و مجتمعه اللصيق أو من الخارج كوسائل التواصل ووسائل الاعلام لاسيما المرئية أو ما يتلقفه من جميع الثقافات مما يجعل تباينها يزداد شيئا فشيئا كلما كبر الشخص وتقدم سنه.

فتعتبر التربية بذلك كل إضافة على تنشئة الطفل اجتماعيا من أخلاق وقيم وتقويم سلوكي وفكري، و هي بذلك إعداد الفرد منذ ولادته ليكون عنصرا فعالا يؤثر في مجتمعه ويتأثر به لينسحب هذا الانتماء آثاره في مختلف الأنساق اقتصاديا وسياسيا وثقافيا.

ويعرفها سعد الدين ابراهيم بأنها العلية المجتمعية الهادفة الى تشكيل وعي الفرد ومشاعره ومن ثم انعكاسات ذلك على علاقاته ببقية أفراد المجتمع.

و قد عرفها هاري جويسون بأنها دمج للذات بقيم المجتمع لإيجاد توافق اجتماعي -

كما عرف تالكوت بارسونز التنشئة بأنها عملية قائمة على التبادل و التفاعل وهي مستمرة ولا تخلو من كونها إنسانية، و هي عملية تعلم بالتقليد والمحاكاة وفق نظرية القدوة التي تبنى عليها التربية السلوكية لدى منهاج السادة الصوفية.

و لنا لإبراز هذا المدلول العودة به الى منشئه في كون الشيخ المري قدوة لمريده، وحسبه أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يربي أصحابه بأسلوب القدوة. (السمالوطي، 1980)

حقا إن التنشئة عملية مستمرة منذ الولادة مروراً بالأسرة ثم المدرسة وهكذا كلما اتسعت الأنساق فتشابكت وتداخلت وظائفها محققة مبدأ التكامل الوظيفي.

ونبين كيف أن مؤسسة الزاوية قد ساهمت بوضوح في صقل شخصية طلبتها بنقل قناعاتها الصوفية تبعا لكون البيئة مؤثرة في الفرد ومن خلاله في المجتمع باعتبارهم لاحقا سفراء هذا الفكر.

التنشئة الاجتماعية من منظور سيكولوجي:

هذا، و تحقيقا لمعنى الانقياد الروحي واعتبارا أن المريدين سواسية أمام شيخ الزاوية على اختلاف مشاربهم ومستوياتهم و منطلقاتهم وهو ما لم يفلح فيه أغلب شيوخ الزوايا حاليا في تكريس تجريد مثالي للأتباع كان على عهد المعلم الأول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي غياب هذا العدل لن يتمكن من تربية مريديه تربية طرقية صحيحة ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه.

ترى المدرسة الأمريكية للتربية ان الاطفال يقتدون بالشخص الذي يعطيهم الأمان والذي يشعرهم بالطمأنينة.

ذلك أنك ترى المشايخ يستمعون بأذان صاغية لمريديهم أملا في ما يمكن حله من مشاكل لاسيما الاجتماعية منها، فتراهم يبادرون بتسديد ما أمكن من ديونهم ولو بتعبئة باقي الأخوان / المريدين وبتزويج من يرد عليهم من عزاب لا سيما إذا توسعوا فيه الصلاح والخلق السوي، وكل من خالط هاته الفئة يدرك ما أعني فلا تجد شابا صوفيا تائها يعاني من مشكل اجتماعي أو نفسي لأنه شرب من معين التربية الروحية.

فتصبح بذلك التربية الصوفية الصحيحة مرجعا ملهما تمنع من يشرب من معينها ويستزید من زلالها أن ينحرف عن الجادة المنشودة التي تقتضي من المسلم بالدرجة الأولى أن يستقر اجتماعيا لكي يتفرغ لرسالته التي خلق من أجلها وهي التمكين لدينه وخدمة وطنه من خلال خدمة المجتمع وقضاياه الاصلاحية والتربوية، فلا يعقل أن يتولى التربية أو ينتسب لتبار تربوي كالطرق الصوفية من هو على فاقة أو غير مستقر اجتماعيا.

إذ تعتبر التنشئة الاجتماعية في شقها الروحي تلك العمليات التي يصبح الفرد بواسطتها واعيا بالرهانات الاجتماعية ومتطلباته الشخصية كفرد صالح في مجتمعه فيستزید من معين التصوف لصقل عملية التعلم و التعليم التي تلقاها من كونه طفلا فراشدا ثم شيخا من سلوكات وقيم ، فيتحول الفرد من طفل يسعى إلى إشباع حاجاته الفسيولوجية إلى فرد يعي المسؤولية وتحملها ضابط لانفعالاته ويقمع طموحاته بما يقتضيه المجتمع وقيمه من دين و أخلاق.

ولقد كان الباحث ن . بارك أول من تطرق إلى مفهوم للتنشئة الاجتماعية في بحثه عام 1939 بفأكد أنها ضرورية لدراسة المجتمعات، اعتبارا أن كل جماعة تهدف إلى ضمان استمراريته بتكوين أفرادها على ما تقتضيه منظومتها الفكرية و الايديولوجية من دين و أخلاق ومن ثم فالزوايا تسعى في هذا الاتجاه ضمانا للاستمرارية، وبذلك يتحقق دور شيوخ الزوايا في صقل شخصية أتباعها وفق فكرة التصوف التي أنشئت من أجلها باعتبار الزوايا ترجمان التصوف كإيديولوجيا.

التنشئة الاجتماعية من زاوية أنثروبولوجية:

يرى أغلب علماء الانثروبولوجيا ان التنشئة الاجتماعية هي صقل لشخصية الطفل ضمن قالب روحي وسلوكي يتضمن قيما و افكارا وسلوكات مجتمعة تعكس الحيز المحيط به و لبئته التي يعيش بها ،مع أن السلوك الفردي هو جملة مواقف تتغير من مجتمع لآخر، وبذلك تعتبر التنسية الاجتماعية تحويل الفرد من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي أو هي التوفيق بين متطلباته كفرد وحاجيات محيطه و قناعات مجتمعه.

ولنا الأسوة الحسنة والمرجع الواضح في السيرة العطرة ، فقد ترى صلى الله عليه وسلم في البادية حيث بعثه جده ابو طالب لتلقي قيمها ومثلها ولتحسين لغته ولا زال بعض العائلات يبعثون بابنائهم للبادية حتى في عصرنا للنأي بهم عن مجتمع المدينة وضواحيها وصخبها وما تتضمنه من مشاغل الحياة في تكريس لفكرة المفهوم الانتروبولوجي للتنشئة الاجتماعية (الرشدان، 2005)

التنشئة الاجتماعية من منظور إسلامي:

إذا كانت التنشئة الاجتماعية هي غرس النظم الأساسية الفاعلة في المجتمع والتي تعكس دطور أنساقه الايديولوجية في شخصية الافراد وذلك تحت طائلة العقاب ولو معنويا في حال شذوذ عن الخط العام للمجتمع كمن يتناول أطعمة او شرابا ينبذه دين المجتمع أو يلبس لباسا يتعارض مع قناعات المجتمع ، فإن ذلك سيقبه على الهامش معما يصحب ذلك من معاناة التطرف ، وقد جاء في الحديث الشريف : فإنما يأكل الذيب من الشاة القاصية.

فإذا كانت تربية الفرد أساس تنمية كل مجتمع بما يتوافق وطموحاته وجب على هذا الأخير توجيههم بما يخدم مصالحه ويجعله يستمر في كنفها في إطار إيديولوجيته دينا ومذهبا ، ولقد لعبت الزوايا هذا الدور في غياب مؤسسات التعليم الرسمية في زمن الاستعمار. (فريجات، 2006)

ومن وسائل التنشئة الاجتماعية في الاسلام نجد : الأسرة و المسجد و المدرسة و الزاوية ، و لقد جعل الاسلام الفرد محور كل دعوة فدعاه إلى الخلق الكريم وحسن معاملة غيره وشكر الله تعالى وهو ما يتلقاه كل مريد من شيخه كتعاليم مشتركة بين زوايا العالم الاسلامي .

هذا، وتبقى السنة الشريفة مصدر كل إلهام قولاً وفعلاً وتقريراً للسادة الصوفية حتى أنه جاء في الحديث لقدسِي: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب.

و في إشارة إلى تفوق مذهب الزهد مذهب التصوف، وقد جاء في الأثر: ليس لابن آدم حق سوى في هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وحب الخبز والماء.

كما يتعلم الناشئة في الزوايا فضيلة الحب في الله تعالى كما جاء في الحديث القدسي عن معاذ بن جبل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغطهم النبيون والشهداء.

وكما سبق ، فإن علماء الاجتماع لا سيما المسلمون منهم قد أجمعوا على أن التربية عملية مستمرة وتنتقل إلى الفرد عن طريق وسائط عدة منها وسائط متخصصة فإننا نضع المدرسة والكتاب والمحاضرة على رأس مناهل الناشئة، إذ تقوم الزاوية بهذا الدور الرسالي والاجتماعي بامتياز فهي تنقل التربية والتعليم جيلا إلى جيل وكأن المجتمع

برمته قد أوكل للزاوية مهمة نقل قناعاته و أفكاره إلى أفرادهِ في تفويض انبهر العالم بنتائجه نظرا لجدية القائمين على هذه المؤسسات وإخلاصهم .

و قد تطرقنا لذلك عرفانا لمؤسسات الزوايا وما لعبته من دور في حفظ بيضة الدين الاسلامي ولغته العربية في أقصى الظروف التي مرت بها الأمة الاسلامية لاسيما فترات الاستعمار في مختلف البلاد العربية والأعجمية ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته، ويكمل ريعه، ويؤكد أن الطفل يولد صفحة بيضاء، ومادة خاما، قابلة للتشكل بين يدي من يتولى العناية والتربية، وقد عبر عن ذلك بقوله : “رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على اليهودية وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام” . (أزمنا التربوية إلى أين، 2005)

هذا، وتبقى الاسرة باعتبارها أول مؤسسة اجتماعية يفتح عليها الصبي عينية وهو صفحة بيضاء لقد حرص الغزالي على الدعوة إلى ضرورة تعهد الطفل بالعناية والاهتمام منذ ولادته حتى سن البلوغ، وذل ويستند في ذلك الشيخ أبو حامد الغزالي إلى الحديث النبوي الشريف الذي يقول فيه : كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

و تبعا لما للأسرة من بالغ الأهمية في صقل شخصية الفرد لا سيما تلك التي يتبع الأب فيها إحدى الطرق الصوفية فإننا نجد أنها توجه أبناءها آليا للزوايا للتشبع بأفكارها رغم وجود مؤسسات التعليم النظامي وذلك لحفظ القرآن الكريم وعلوم الدين الاسلامي.

و مما ينم عن تكامل فلسفته التربوية، فهو يشبه التربية بفعل الفلاح الذي يقلع الشوك، كما لكونها الوجهة الاجتماعية الأولى التي يصادفها الفرد في حياته كما سبق ، وفي هذا الاطار فإن امتداد الفكر الصوفي والسلوك التربوي مضمون جيلا عن جيل وهو ما يلمسه أي باحث أو حتى عامي في هذه الطائفة. (جاذالله، 1997)

ولقد ظلت التربية في رحاب التصوف مجسدا للتنشئة الاسلامية الصحيحة، حيث لا يقتصر الفرد على حلقات للذكر التي يحضرها ، إنما يمتد نفعه لغيره من أفراد المجتمع، ولهذا نجد شيوخ المتصوفة يركزون على مداومة حضور الفرد حلق الذكر وملازمة الأخوان – مريدي الطريقة – لكي لا ينغمس في العامة وهم يصطلحون على تسميتها بالعامة السامة لما فيها من ضرر وبعد عن الله تعالى محبوبهم الأوحـد وشغلهم الشاغل، على عكس ما رمي به التصوف و أتباعه من جمود وعدم فاعلية في المجتمع . (الكتاني، 2000)

هذا، ومن ثمرات التربية الصوفية بالزوايا وما يتلقاه الناشئة من سلوك بملازمة الشيخ المري هو اتخاذ رفقة صالحة إذ لا ينفى أثر الرفاق على صقل شخصية الفرد مهما كان سنه، وقد أولى الإسلام الحنيف لهذه القضية بالغ العناية فقال صلى الله عليه وسلم : المرء على دين خليله فلينظر أحـدكم من يخال .

أساليب التنشئة الاجتماعية في الإسلام:

وبما أن التنشئة الاجتماعية ترجمة للإيديولوجيا وبوتقة تتمع فيها المنطلقات والقناعات التي يرسو ليها المجتمع ككل، ففيها تتجسد توجهات الآباء بالمقام الأول ثم الخط العام للدولة كمنظومة

حكم تسهر على تكريس منطلقات الشعب وتطلعاته، فإن التربية والتعليم يعتبران أهم مجال يتحقق فيه إعداد جيل يترجم هذه القناعات لا سيما الدينية والفكرية ويضمن استمراريتها، وذلك دون قصر التنشئة الاجتماعية على حنان وعطف الآباء على الأبناء ومنهم من يمنح الطفل ثقة في النفس، وأن يتم تعويده على المسؤولية حسب المفكر ن. شارلز . (نسيم، 1984)

واعتباراً أن مدارس التعليم القرآني باكورة الحضارة الإسلامية، فإن منهج التعليم في المحاضر و الكتاتيب كان ولا يزال المنهج المعتمد لتربية وتعليم الأجيال في المجتمع الاسلامي منذ الزمن الأول، حيث قد استلهموا مبادئ التربية من الوحي والسنة.

وبذلك تعتبر الحضارة العربية الإسلامية قد حازت السبق في هذا المجال، فقد كان السلف يبتعثون أبنائهم للكتاتيب مبكراً كما كان عليه القوم و أمراؤهم يجلبون المعلمين والمربين لقصورهم لذات الغرض ويكرمونهما أيما إكرام ولا زال بعض الخلف من خيرى الأمة يفعلون لاسيما من أبناء البادية الذين ينصبون خيمة للطالب يوفره كل مستلزمات العيش حتى قد يزوجون العازب لانقطاعه الى رسالة التعليم الممزوجة بالسلوك وتركيز النفس و مبادئ الرجولة عامة، ذلك أن التربية كانت دينية ثم عادت بمرور الوقت تهدف إلى تهذيب النفس وتوسيع مدركات عقول الأفراد وذلك حسب الأصول الأولى للتعليم الاسلامي، فلم تزل قائمة على التلقي من أفواه الرجال معتمدين في ذلك على قاعدة صلبة تمتد جذورها إلى نزول الوحي على معلم البشرية الأول صلى الله عليه وسلم مما يقتضي ضرورة التلقي من أفواه الرجال بغرض الاستزادة من العلم ، على عكس ما نرى اليوم ممن يدعون العصامية في التعلم لا سيما حفظة القرآن من المصاحف من غير أبناء الزوايا، وقد قيل: إياك والقرآن من مصحفي والعلم من صحفي.

1- التنشئة في الزوايا بالقرآن الكريم:

لا شك أن انعكاس الواقع السياسي والثقافي والتعليمي على الحياة الاجتماعية عبر أزمنة كثيرة في المجتمعات الإسلامية كان واضحاً بين أفرادها، حيث و بعد نهضة شملت كافة الميادين جاء عهد الانحطاط المتعدد الأبعاد خاصة الحملة الاستعمارية على بلاد الاسلام والتي من أهم أهدافها البعيدة هي طمس معالم حضارتها و صدها عن رسالتها الحضارية التي قامت على كلمة - إقرأ- فكان العلم ولا شيء غيره عبر الصفحات المشرفة من تاريخنا الاسلامي.

ومادامت المهمة الأساسية التي عرفت بها الزوايا هي تعليم القرآن الكريم وتحفيظه للناشئة فإن الآباء في الغالب يقصدون الكتاتيب بأبنائهم لهذا الغرض ومن ثم جني ثمار ذلك بالتحكم في اللغة العربية وقواعدها وفهم ما تيسر من معانيه قبل مواصلة التحصيل العلمي بدرجات أعلى كالتفسير وعلوم القرآن ، لتبقى الغاية الأسمى التي انتسبوا من أجلها هي تزكية النفس العبودية لله تعالى و طاعته بمقتضى مفهوم الإحسان وهو مبدأ لا يدركه احد أكثر من المتصوفة ، ذلك أن القرآن الكريم شفاء لما في الصدور، ويحوي جملة المكارم التي يرتقي حافظه بها درجات ما كان ليرتقيها لولا وقوفه عند هذا الدستور الشامل وفهمه لمعانيه، والتي على رأسها توقير الله تعالى والتأدب مع الذات العلية، يفهم طلبة الزوايا أن العبادة ليست شعائر تمارس بقدر ما هي تأدب مع الله تعالى ووقوفاً عند ما أمكن من سابق فضله وإنعامه، قال تعالى: وما قدروا الله حق قدره، ذلك أن الله تعالى بقدر ما أمر بعبادته فقد أمر بتوقيره كما سبق.

فينعكس السمات على وجوه طلبة الزوايا والحياة بشكل جلي ما يجعلهم مصدر فخر المنظومة التعليمية الأصيلة في الزوايا وهو ما يفتقد للأسف لدى غيرهم في الغالب من طلبة المنظومة الرسمية لاسيما في ما يخص توقير الشيخ المعلم والربي.

فمن أدبيات أبناء الزوايا هذه الأبيات التي تتبين تأكيد التعليم في الزوايا على التربية قبل التحصيل العلمي على عكس غيرهم من منتسبي المنظومات التعليمية الرسمية في الغالب:

و احفظ لشيخك ما إن عشت حرمته ... واجعله في البر والتوقير مثل أب

قبل يديه إذا لقيته أبدا ... فكم أفادك من علم ومن أدب

الأمر الذي يميز خريجي الزوايا وطلبتها خاصة والمتصوفة عن غيرهم من العامة.

وإلى هذا أشار كبار علماء الاجتماع كابن خلدون والغزالي إلى أهمية تحفيظ القرآن الكريم وما له من بالغ الأثر على شخصية الناشئة وتكوينها تكويناً سليماً، والأمر نفسه بالنسبة لابن سينا في كتابه السياسة بضرورة تحفيظ القرآن الكريم للناشئة .

وفي هذا الإطار نؤكد على توحيد القراءة وفق رواية ورش عن نافع التي عكست وحدة المشرب طيلة قرون من الزمن قبل أن يفتح المجال لغيرها من القراءات خارج الزوايا، مما فتح ثغرة قد تؤتى منها المرجعية كخطوة استباقية لتهديد الوحدة المذهبية ومن ثم سهولة ضرب الوحدة بكل معانيها لا سيما السياسية والعرقية من طرف المتربصين وما أكثرهم .

1- التنشئة الاسلامية بالسنة الشريفة:

وما دامت السنة النبوية الشريفة ترجمان القرآن الكريم وخزانة أسرار ومفكك ألغازه فقد أولت الزوايا مكانة لبرجحة أمهات كتب السنة المطهرة بدء من السيرة العطرة ومنظمتها خاصة ما اشتهر في بلاد الغرب الاسلامي وزواياه كالبردة والهمزية وكتب القصائد لإحياء الموالد ناهيك عن ما اشتهر من كتب الحديث كالاربعين النووية و الموطأ مع التركيز على فقه العبادات، مستحضرين القدوة المثلى و الانسان الكامل رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أراد النجاة بنفسه وذريته إنما عليه اتباع سنة نبيه من مشربها بانتساب أبنائه الى هذه المؤسسات الروحية التي اتسمت بالانقياد وحسن الاقتداء وتحقيق معنى الاحسان مع الله تعالى أولا ومع الشيخ المري ثانيا ثم مع الوالدين فلا يمكن تصور عاق من بين طلبة الزوايا، ولهذا و إثباتا لما ورد في قوله تعالى: وإنك لعلی خلق عظیم .

فقد أجمع علماء الاجتماع على سمو أخلاق هذا النبي وكرم شمائله وصلاحها لتكون مرجعا في الأخلاق وقدوة في الاتباع وأقروا بفضلها في ذلك على الخلائق.

2- التنشئة الاسلامية بالقدوة الصالحة والتوجيه و الموعظة الحسنة:

ترى المدرسة الامريكية للتربية ان الاطفال يقتدون بالشخص الذي يعطيهم الأمان والذي يشعرهم بالطمأنينة، فإذا كان العارفون بخبايا التربية الروحية يقولون أن القدوة الأسمى لهم هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم مع أبناء الزوايا وانقيادهم لمعلمهم الأول بتخصيصهم لأوراد جمعة متعددة تعدد الطرق الصوفية للصلاة عليه ، فقد تحققت فكرة كونه محور الكائنات ، ورحمة العالمين و قدوة المنصفين حتى من خارج دائرة الاسلام رغم أنكارهم استكبارا واستعلاء لهذه الحقيقة.

ذلك أن كلمة محمد الدينية والتاريخية محمد الانسان ومحمد النبي هي أرقى مطالب المتصوفة وغاية كل عاقل ومطلب كل سائر الى الله عبر الطريق الذي مهده بمعراجيه و مسراه الذي أم فيه إخوانه الانبياء عليهم السلام تعبيرا على شمولية الرسالة وصلاحها لكل زمان ومكان باعتبارها تجربة يصفها الشيخ محيي الدين ابن عربي بأسلوب ذوقي رفيع ، وهو ما أدركه أبناء الزوايا أكثر من سواهم الذين حذف الغلاة منهم كلمة سيدنا خوفا حسب زعمهم على سلامة العقيدة وباستعمال سئء وفهم خاطيء للحديث الشريف مثل قوله صلى الله عليه وسلم: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله.

فكما هناك السنة الفعلية التي تعضد التشريع النقلي فإن على أفعال المري أن تترجم في سلوكه ما يمليه على المتعلمين لأن كثيرا من الأتباع والمريدين يتغنون ويستشهدون بسلوك ومواقف شيوخهم بدلا من نصوص شرعية وذلك تبعا لشدة تعلقهم بالشيخ المري، فلا يستساغ ارتكاب ما تنهى طلبتك عنه من آثام أو على الأقل ما يعتد

من خوارم المروءة كالأكل في الشارع ورفع الصوت ومجالسة النساء، وكيف يعلم الشيخ مريديه الزهد وهو يلهث وراء الدنيا وينغمس في ملذاتها الحلال وأحرى ما كان حراما. (خفاجي، 2002)

لتكون الغاية من كل ما سبق إيجاد ذلك المجتمع المنشود كفكرة ميدانية يمكن بل تجب تحقيقها على أرض الواقع وليست فكرة خيالية حبيسة العقل غير قابلة للتطبيق كأفكار بعض الفلاسفة وما تعلق بالمدينة الفاضلة كأرسطو وكالفارابي أو جمهورية أفلاطون، هذا المجتمع الذي يتلقف المكارم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كابرا عن كابر، إذ لا تقتصر التربية في الاسلام على الصغار فحسب بل تمتد إلى الكبار فتجد في الزوايا زوارا ومريدين من كافة الأعمار.

ومما ورد في حق التعليم بالقدوة:

والابن ينشأ على ما كان والده إن الجذور عليها ينبت الشجر

مداخل تضمين التربية الروحية في مناهج التعليم النظامي:

على مقدار إرادة أفراد المجتمع و همتهم يمكن أن ترقى الأمم الى مصاف الحضارات المنشودة، ولن يتم ذلك إلا عبر مداخل يمكن عن طريقها تضمين التربية الروحية المستقاة من منهاج تزكية النفس ذي المشرب الصوفي، إذ يحسن اعتماد فكرة التعليم التضامني بين المنهاج الأصلي في لزوايا و ذلك المعتمد في المنظومات الرسمية، فما كان ناقصا هنا كمل هناك بفعل تراكم التجربة أو لحنكة القائمين على التعليم .

هذا، ويعد هذا المدخل من أكثر الأساليب جدارة وفعالية وأكثرها سهولة لقبولها لدى الآباء لاسيما في الفترة ما قبل التمدرس ولإمكانية شموليتها على الناشئة جميعهم.

وعليه، فإن تحقيق أهداف هذا الأسلوب يعتمد إلى حد بعيد على دمج جهود شيوخ الزوايا والمدارس القرآنية من جهة والمعلمين النظاميين من جهة أخرى، ما يؤدي إلى التكامل بين البرامج التي تكون في الأصل بسيطة وقاعدية يتم التركيز فيها على فكرة السلوك والقدوة.

ومن خلال ما سبق، يمكن القول أن من مزايا هذا المدخل سهولة تطبيقه، إذ لا يحتاج إلى إضافة تعديلات جديدة على المقررات الدراسية بقدر ما يحتاج الى توحيد الرؤى وإذابة ما أمكن من فوارق، واعتماد برامج دراسية متكاملة بين الضفتين للتربية الروحية كمنهاج دراسي قاعدي لاسيما في مرحلة التعليم ما قبل التمدرس.

المراجع:

- أزمتنا التربوية إلى أين. جريدة المحجة. (2005).
- عبد الله زاهي الرشدان. التربية والتنشئة الاجتماعية. عمان: دار وائل. (2005).
- غالب فريجات. التربية وتنمية المجتمع. عمان: دار أونة. (2006).
- فاطمة الكتاني. الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية. عمان: دار الشروق. (2000).
- محمد عبد المنعم خفاجي. التصوف في الاسلام واعلامه. الاسكندرية: دار الوفاء. (2002).
- محمد نسيم. لما ينحرف الاطفال. بيروت: مكتبة النهضة العربية. (1984).
- مطوري اسماء. مؤسسات التنشئة الاجتماعية. بسكرة: جامعة محمد خيثر. (2015).
- منال عبد المنعم جادالله. التصوف في المغرب العربي. سبأ: مكتبة العلوم السياسية جامعة سبأ. (1997).
- نبيل السمالوطي. اجتماعيات التربية الاسلامية. جدة: دار الشروق. (1980).